وحمله ابن أبى حمزة على محمل آخر: فكر عن ابن عباس أو غير أنه رأى النبى ﷺ فى النوم، فبقى بعد أن استيقظ متفكراً فى هذا الحديث، فدخل عليه بعض أمهات المؤمنين - لعلها خالته ميمونة، فأخرجت له المرآة التى كانت للنبى ﷺ فنظر فيها، فرأى صورة النبى ﷺ ولم ير صورة نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويعكر عليه أن جمعا جما رأوه فى المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه فى اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف. انتهى، وسيأتى الجواب عن ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى.

«باب» فى الكلام على رؤيته ﷺ فى اليقظة:

قال الإمام عفيف الدين اليافعى فى كتابه "خلاصة المفاخر فى مناقب الشيخ عبد القادر". نقلا عن الشيخ الكبير العارف بالله المعروف بالشيخ بكا - رضى الله عنه - قال: حضرت مجلس الشريف محيى الدين عبد القادر الجيلانى - رضى الله عنه - مرة، فبينما هو يتكلم على المرقاة الأولى من الكرسى إذ قطع كلامه، وسها ساعة ثم نزل إلى الأرض، ثم صعد الكرسى وجلس على المرقاة الثانية، فأشهدت المرقاة الأولى قد اتسعت حتى صارت مد البصر، وفرشت من السندس الأخضر، وجلس عليها رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى - رضى الله عنهم -.

وتجلى الله على قلب الشيخ عبد القادر فمال حتى كاد أن يسقط، فأمسكه رسول الله ﷺ لئلا يقع، ثم تضاءل حتى صار كالعصفور، ثم نما حتى صار على صورة هائلة، ثم توارى عنى ذلك كله.

فسأله الشيخ بكا عن رؤية النبى ﷺ وأصحابه فى اليقظة، فقال: أرواحهم تشكلت، وإن الله تعالى أيدهم بقوة يظهرون بها فيراهم من قواه الله تعالى كرؤيتهم فى صور الأجساد وصفات الأعيان، بدليل حديث "المعراج".

وسئل أيضا: عن تضاؤل الشيخ عبد القادر ونموه، فقال: كان التجلى الأول بصفة لا يثبت لبدوها بشر إلا بتأييد نبوى، فلذلك كاد الشيخ يسقط لولا تداركه رسول الله ﷺ.

وكان التجلى الثانى بصفة الجلال؛ فلذلك تضاءل، وكان التجلى الثالث بصفة الجمال؛ فلذلك انتعش ونمي.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وذكر اليافعى أيضا: بالإسناد أن الشيخ عبد القادر قال: ما من نبى ولا ولى إلا وقد حضر مجلس الأحياء بأجسامهم، والأموات بأرواحهم.

وروى الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله الشاذلى عن الشيخ أبى العباس المرسى أنه قال: "والله لو حجب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين".

ومما اشتهر عن شيخ الإسلام شرف الدين البارزى. أنه رأى النبى ﷺ فى اليقظة بشاطئ بحر الفرات، ثم صنف بعد ذلك توثيق عرى الإيمان، ونص على مسألة الرؤيا فى فصل فى حياة الأنبياء.

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالى: ولا تظنن أن روزنة القلب لا تنفتح للملكوت. بل لو أن رجلا راض نفسه، وتخلص قلبه من الغضب والشهوة والأخلاق الردية، ويخرج من قلبه مسراده لهذا العالم، ويجلس فى موضع خال، ويغمض عينيه، ويعطل حواسه.

ويعطى لقلبه المناسبة لعالم الملكوت، يقول على الدوام: الله! الله! بالقلب لا باللسان، إلى أن يصير من نفسه، ومن جميع العالم بلا خبر من شى إلا من الله، فإذا صار كذلك، وإن كان مستيقظا انفتحت له الروزنة، وما يراه الخلق فى النوم يراه هو فى اليقظة، وأرواح الملائكة تظهر له فى

صورة حسية، ويرى الأنبياء كلهم، ويأخذ عنهم الفوائد، ويحصل له منهم المدد، ويرى ملكوت السموات والأرض، ومن انفتح له هذا الباب يرى الأمور العظيمة الهائلة التي لا تدخل تحت الحس والخيال.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»[2].

وجميع علوم الأنبياء عليهم السلام - من هذه الطريق، لا من طريق الحواس والتعليم، وبداية هذا كله المجاهدة.

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[3].

يعني: تنظف من كل شيء، وانقطع عن كل شيء، واعط كليتك له، ولا تشتغل بتدبير الدنيا؛ فإنه - سبحانه وتعالى - يكفيك مؤنتها ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[4]. هذا كلام الغزالي بحروفه.

وقال ابن العربي المالكي - في قانون التأويل - ما حاصله:

وأما رؤيته ﷺ في اليقظة، فهي ممكنة، وإذا كانت ممكنة فلا يختص بها واحد دون آخر. ثم قال: ولا المسلمون دون الكافرين، فتكون في حق المؤمن كرامة، وفي حق الكافر عقوبة وإنذارا[5].

قلت: هذا في الإمكان العقلي، وأما الوقوع فاختص به الصالحون كرامة لهم دون غيرهم، إذ لا يلزم من الأمر الممكن عقلا وقوعه على جميع

(١) سورة الأنعام - آية ٧٥.

(٢) رواه ابن ماجة.

(٣) سورة المزمل - آية ٨.

(٤) سورة المزمل - آية ٩.

(٥) قانون التأويل لابن العربي المعافري. دراسة وتحقيق الدكتور محمد السليماني، طبع دار القبلة جدة ١٤٠٦هـ.

الأفراد وإن كان عاما. فممن نص على وقوعها كرامة في يقظة الخواص دون العوام الإمام اليافعي في روض الرياحين فقال ما نصه:

"رؤية الموتى فى خير أو شر نوع من الكشف يظهر الله تعالى به حال الموتى، بشارة أو موعظة أو مصلحة من اتصال خير إليه أو قضاء دين عليه، أو غير ذلك.

وهذه الرؤية قد تكون في النوم وهو الغالب، وقد تكون في اليقظة وذلك من كرامات الأولياء الذين هم أصحاب أحوال ومقامات، فينظرون الموتى في اليقظة وقت ما يريد الله بحكمة يعلمها، وفى ذلك حكايات يطول ذكرها.

وقال حجة الإسلام الغزالي - فى كتابه: "المنقذ من الضلال" - وقد مدح طريقة الصوفية - ثم قال: "فماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله.

قال: وفى أول الطريقة تبتدى المكاشفات حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء عليهم السلام، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول محاول أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه.

وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ ولا ينبغى لمن هو فى تلك الحالة أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

هذا آخر كلام حجة الإسلام، وناهيك به جلالة وفخرا.

ما وقع لبعض الأولياء حال رؤيته ﷺ

ولما حج القطب العارف السيد أحمد بن الرفاعى أنشد عند الحجرة النبوية لنفسه:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها   تقبل الأرض عنى فهى نائبتى

وهذه نوبة الأشباح قد حضرت   فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

فعند ذلك خرجت اليد الشريفة من الحجرة، فقبلها.

قلت: هذا يسمى عند الصوفية بالكشف الصورى، صرح بذلك ابن السبكى، وغير واحد.

ولقد أخبرنى بالسند المتصل الشيخ الصالح نور الدين على بن أحمد بن على الطندتاوى الفرضى سماعا من لفظه بخانقاه سعيد السعداء قال: أخبرنى شيخنا العلامة أحد أئمة الشافعية زين الدين ابن عبد الرحمن البوتيجى قال: أخبرنى ولى الله الشيخ أبو بكر الشاذلى أنه كان فى صلاة.

ولما قال فى التشهد: السلام عليك أيها "النبى" ورحمة الله وبركاته، فكشف له عن الحجرة النبوية، فرأى النبى ﷺ، وهو يقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أبا بكر.

وقال صاحب البهجة: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أبى الحسن على بن أبى المحاسن يوسف بن أحمد بن محمد القرشى الماردينى قال: سمعت أبى يحدث عن أبيه قال: كان شيخنا الشيخ موسى الزولى - رضى الله عنه - كثير الشهادة لرسول الله ﷺ -، وكانت أغلب أفعاله منه ﷺ، وكان إذا مس الحديد بيده لأن له حتى يصير كاللبان.

ووقع مرة بماردين حريق فاضح، واستطار فى أقطار البلد، فضج الناس

بالشيخ موسى، فأعطاهم عكازه وأمرهم أن يلقوه فى النار، فذهبوا وألقوه فيها فانطفأت لوقتها، كأنها لم تكن قط، وجاءوا فأخرجوا العكاز فما رأوه احترق، ولا اسود، ولا سخن، فأتوا به إليه، فقال: إن الله وعدنى أن لا يحرق بالنار ما مسته يدى.

وقال فى البهجة أيضا: أخبرنا أبو الحسن على بن عبد الله الأبهرى قال: سمعت الشيخ أبا الحسن الخفاف البغدادى بها يقول: سمعت شيخنا أبا السعود الحريمي يقول: كان الشيخ خليفة يرى رسول الله ﷺ كثيرا فى اليقظة والمنام، ورآه فى ليلة واحدة تسع عشرة مرة، وقال له فى إحداهن: يا خليفة، لا تضجر منى، كثير من الأولياء مات. بحسرة رؤيتى انتهى.

"تنبيه": قال شيخ الإسلام ابن حجر فى فتح البارى، ونقل ابن أبى جمرة عن جماعة عن الصالحين أنهم رأوا النبى ﷺ فى المنام، ثم رأوه بعد ذلك فى اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا متخوفين منها، فأرشدهم إلى طريق تفريجها، فجاء الأمر كذلك.

ثم قال شيخ الإسلام: قلت: وهذا مشكل جدا، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولا يمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة.

شبهة وجواب:

ويعكر عليه أن جمعا جما رأوه فى المنام، ولم يذكر واحد منهم أنه رآه فى اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف.

وقد اشتد إنكار القرطبى على من قال: من رآه فى المنام فقد رأى حقيقته، ثم يراها كذلك فى اليقظة، قال: وقد فطن ابن أبى جمرة لهذا، فأحال بما قال على كرامات الأولياء.

والجواب عن ذلك: أن قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة:

«من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة»[1].

هذا من خبر الصادق، صدق بجماعة من الصالحين رأوه في المنام، ثم رأوه في اليقظة، ولا يلزم إطلاق الصحابة عليهم؛ لأن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنا به، أي في عصر الرسالة، ومات على الإسلام ولو تخللت ردة في الأصح. وكلام القرطبي صحيح في حق من قال: من رآه في المنام فقد رأى حقيقته.

وقد علم أن الرؤية في المنام رؤية تخيل وحسبان، لا رؤية عيان.

وليس كذلك رؤية الأنبياء - عليه السلام -؛ لأن ما يرونه في المنام فكأنهم قد رأوه في اليقظة تخصيصا من الله - تعالى - لهم وتمييزا لهم عن أبناء جنسهم.

قاله إمام المتكلمين أبو بكر الباقلاني. والله أعلم.

الاستدلال على الجواب:

"تذنيب" : تقدم أن ابن أبي جمرة نقل في بهجة النفوس ظنا منه عن ابن عباس أنه رأى النبي ﷺ في النوم، فتذكر بعد استيقاظه قوله عليه السلام: "من رآني في المنام فسيراني في اليقظة"، وبقي متفكرا فيه، ثم دخل على بعض أمهات المؤمنين، فأخرجت له جبته ﷺ ومرآته، فنظر في المرآة فرأى صورة النبي ﷺ، ولم ير صورة نفسه. انتهى.

أنشدني العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن شرف الدين لنفسه:

---

(١) رواه البخاري.

مرآة وجه رسول الله ناقلها يظن ناقلها الحبر ابن عباس

وأبدت المـرأة المرآة مظهره كرامة الوجه عند الله للناس

قال الإمام العلامة السيد بدر الدين الأهدل اليمنى أحد فقهاء الشافعية فى كتاب "الرؤية"، وقفت عليه واستوعبت مطالعته، فما أكثر فوائده!!

منها: ما نصه رؤية النبى ﷺ فى اليقظة جائزة لات يحيلها العقل، ولم يمنع منها الشرع، وكذلك رؤية سائر الأنبياء بعد موتهم، بل وسائر الأموات، وكذا رؤية الملائكة، ورؤية الجن والشياطين، ورؤية الجنة وعوالم الملكوت.

وقد وقع ذلك كله للأولياء، وشاهده الأصفياء، وصدق به الموفقون من العلماء أهل السنة القائلين بإثبات كرامات الأولياء، وإن كل ما جاز للأنبياء من المعجزات جاز مثله للأولياء من الكرامات، بشرط عدم التحدى.

فانظر إلى تصريحه بذلك. ثم قال بعد ذلك صريحا لتحقيق هذه اليقظة وتمييزها من يقظة العوام إلى يقظة الخواص التى هى ظرف لهذه الرؤية الشريفة:

وأما وقوعها للأولياء، فقد تواترت بأجناسها الأخبار، وصار العلم بذلك علما قويا انتفى عنه الشك، ومن تواترت عليه أخبارهم لم يبق له شبهة فى ذلك.

ولكن يقع لهم ذلك فى بعض غيبة حس وغموض طرف لورود حال لا تكاد تضبطه العبارة ومراتبهم فى الرؤية متفاوتة.

قلت: وهذه اليقظة برزخية مستمدة من المقام النبوى أكرم الله تعالى بها أولياءه ليتحفهم بمشاهدة الملكوت بدليل أنه ﷺ كان يؤخذ عن الدنيا عند تلقى الروح، لما روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض. قيل: وما بركات الأرض؟

قال: زهرة الدنيا. فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟! فصمت النبى ﷺ حتى ظننا أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا. فذكر الحديث».

فظاهر هذا: أن النبى ﷺ كان ينتقل من الحال المعروفة إلى حالة تستلزم الاستغراق والغيبة عن الحالة الدنيوية حتى ينتهى الوحى، ويفارقه الملك.

قال شيخ الإسلام البلقينى: هى حالة يؤخذ فيها عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخى يحصل عند تلقى الوحى، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأسرار، خص الله نبيه برزخ فى الحياة يلقى الله فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار.

وقد يقع لكثير من الصلحاء عند الغيبة بالنوم أو غيره اطلاع على كثير من الأسرار، وذلك مستمد من المقام النبوى، ويشهد له حديث:

«رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»[1].

هذا آخر كلامى البلقينى.

وقال الإمام اليافعى فى «روض الرياحين» حاكيا عن الشيخ أبى العباس الخراز قال: وردت من السياحة على الشيخ أبى العباس المرينى - بفتح الميم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر النون وياء النسبة-، وكان رجلا كبيرا، فلما جلست إليه سأله سائل فقال له: يا سيدى، أيما أفضل العقل أم الروح؟

---

(١) رواه البخارى.

فشاهدت الشيخ قد أسرى بروحه وروحى إلى أن دخلنا السماء الدنيا، فاشتغلت برؤية أملاكها وأنوارها، وغاب الشيخ عنى، فطلبت مستقرا أستقر فيه فلم أجده، فنزلت ووقفت، ونظرت إلى الشيخ فإذا هو مستغرق فى غيبته، ثم بعد لحظة حضر.

فقال السائل: لما أسرى بالنبى ﷺ - صحبة جبريل - عليه السلام - فانتهى معه جبريل إلى حده ووقف، وقال: يا محمد ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾(١)، منذ خلقت ما تعديت من ههنا. فتقدم النبى ﷺ إلى مقامه الذى اتصل به، فكان جبريل - عليه السلام - روحا، وكان محمد عقلا.

قال اليافعى رضى الله عنه: أخذوا العلم من معدنه، ولم يأخذوه من تقليد ولا معقول، وذلك عادة شيوخ هذه الطائفة أرباب المعارف الإلهية.

قلت: هذا تحقيق لكلام البلقينى، ويشهد لذلك قول بعض العارفين بالله:

ما من شيء أخبر عنه الكتاب والسنة من الغيب إلا شهدته.

ولما صنف الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم العراقى كتابا سماه "الباعث على الخلاص من حوادث القصاص". موضوعه الإنكار على الصوفية فيما يقولونه حال قصهم من أمور غير منقولة ولا تعلموها من أحد.

فانتدب للرد عليه أستاذ الأستاذين قطب العارفين سيدى على بن وفا الشاذلى فى مصنف سماه "الباعث على الخلاص من سوء الظن بالخواص"، قاله فيه ما نصه:

أما من تكلم فى الكتاب والسنة بما استنبط منهما أو فهمه من الأحكام.

---

(١) سورة الصافات - آية ١٦٤.

أو الحكم التى لا تخرق إجماع من يعتد بإجماعه، فهذا لا سبيل إلى تخطئته بتكلمة بذلك سواء تكلم بما سبق به أو لم يسبق، وهل هذا إلا شأن المجتهدين بما جعل الله فى قلوبهم من نور هدايتهم وإرشادهم، فحاشاهم بذلك عن الحكم بخطأهم، كيف.

وفهمهم ذلك مضاف لجود الله - تعالى - وتخصيص نبيه ﷺ - كما قال علي - رضى الله عنه - وقد سئل: هل خصكم نبيكم دون الناس بشيء؟ قال: لا. ثم قال: إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه.

هذا من جملة كلام قطب الدائرة فى الرد على العراقى. والله أعلم.

* * *

